محكم

سؤال الدين والتدين في المجتمعات العربية:

ملاحظات منهجية ومعرفية

محمد الغيلاني

باحث مغربي

مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم العلوم الإنسانية والفلسفة

«Il faut que nous naissons coupables, ou Dieu serait injuste.»
Pascal**,** ***Pensée,*** 1670 **(posth.)**

تعليق:

كيف يمكن التوفيق، فعلا، بين وجود الشر على الأرض وطيبة الإله اللانهائية؟ بالنسبة إلى باسكال (1662 – 1623) Blaise Pascal، كما هو شأن الكنيسة المسيحية، فإن الخطيئة الأولى لآدم تنسحب على عقبه، ولا أقل من ذلك أن كل رجل يرى النور اليوم يولد مذنبا. ولو لم يكن الأمر كذلك، لانتهى بنا المطاف إلى تحميل الإله مسؤولية المذابح التي يتعرض لها الأبرياء.[1]

يقول أندري جيد (1951 – 1869) André Gide:

«في اليوم الذي تفهم فيه أن المسؤول عن أغلب عذابات الحياة، ليس الإله، بل الناس، فإنك سوف تقرر ألا تكون شريكا فيها».[2]

Gide, ***Les Nourritures terrestres***, 1897**.**

ملاحظات منهجية ومعرفية:

الأفكار التي نسعى إلى تقديمها في متن هذه الدراسة، تمثل دعوة إلى تفكير جماعي في موضوع الدين والتدين، دعوة قلقة تقود حتما إلى ولوج عالم ذهني ترسو أفكاره عميقا في الضمير الفردي والجماعي.

نتجه في هذا السياق نحو صوغ جملة من التساؤلات التي نعدها مفتاح التفكير في قضيتي الدين والتدين،وهو موضوع مثار جدل في سياق مرحلة تاريخية حساسة تتميز بتوترات اجتماعية تمس عمق مجتمعاتنا في بنياتها الأفقية والعمودية، في منظومة قيمها وفي تمثلاتها، وفي حركة التحول واتجاهاتها. يتعلق الأمر إذن، بمصير المجتمع ككيان ومؤسسات وعلاقات.

[1]- Pascal considère que « Nous connaissons la vérité non seulement par la raison mais aussi par le cœur ». In. Pascal, ***Pensées***, 1670

[2]- Gide André**,** ***Les Nourritures terrestres*****,** Gallimard, 1897

فهم علاقة الدين بالتدين تقتضي استعمال مكتسبات العلوم الإنسانية، والاستفادة منها وتوظيف بعض أدواتها لتقديم إشارات وفتح مسارات تتمتع بقدر محترم من الكفاءة والنباهة المعرفية، للفت الانتباه إلى أهمية التفكير والنقاش أكثر، مما تدعو إلى الاطمئنان إلى الخلاصات السهلة والمريحة.

لسنا هنا بصدد تقديم أجوبة، أو توضيح التباسات، أو الدفع بقناعات، واستنتاجات راسخة ونهائية. إنما سعينا، في هذا السياق، يستند إلى إلقاء بعض الضوء على أهمية الإشكاليات التي ترتبط بالدين والتدين بوصفهما ظاهرتين راسختين في صيرورة عنيفة لا نتحكم فيها كأفراد، ولا نستطيع أن ننفك من قواعدها وسطوتها. يتعلق الأمر بظاهرة موجودة قبل وجودنا، يتبدل حضورها في وعينا كما في مواقفنا، وتؤثر فينا أكثر مما نؤثر فيها.

ليس مهما في موضوع الدين والتدين العثور على أجوبة، إنما الأهم من ذلك هو أن نكتشف الصعوبات والالتباسات التي تواجهنا في محاولة فهم وتفسير كل من الدين والتدين، والوعي بها. لكن وعينا بهذه الصعوبة، ووقوفنا على هذا الالتباس، إنما هو جزء من فهم الموضوع بالأساس. فهم الموضوع مرتبط بفهم التباساته وغموضه. وإن غموض بعض التحليلات، إنما هو أيضا جزء من غموض الموضوع نفسه.

لئن كان من الممكن التمييز بين الدين والتدين، فإن ذلك التمييز يبقى حبيس التأطير النظري الذي نعتمده في إرساء المفاهيم، ولا معنى للبحث عنه في الوقائع السوسيولوجية التي تعبر أساسا عن حالة اجتماعية يتماهى في كنفها الدين والتدين معا، كما لو أنهما ظاهرة واحدة، إذ يمثل المجتمع عالما دينيا مستقلا عن فهمنا كأفراد؛ فالدين والتدين هنا هو: فهم المجتمع، وتفسيره لحياته الميتافيزيقية. كما لا يهتم المجتمع، في إثر ذلك، بما تقول به الفلسفة أو العلوم الإنسانية.

إزاء موضوع الدين والتدين نحن أمام حقل معقد، يقتضي التفكير فيه التسلح بعُدة مفاهيمية نظرية ومعرفية على قدر كبير من الدقة والعمق والاحتياط النظري والمعرفي على السواء. إذ يتعلق الأمر هنا بما يمكن وصفه بـ"شروط الوضع الإنساني" عامة، وبتأمل في عمق ظاهرة متبدلة باستمرار وفي سيولة تشكلها وتجذرها وتطورها. ومن ثم لا يمكن الوثوق بما استقرت عليه نتائج البحوث في هذا المجال، إلا إذا كان ذلك في إطار الاستئناس الواعي بأهمية تراكم المعرفة في حقلي الدين والتدين.

نميز بين الدين والتدين لاعتبارات معرفية وسوسيولوجية؛ فالتدين ليس صورة مطابقة للدين، ولا يعنينا أن يكون تعبيرا صادقا عن الدين أو غير صادق، ما يهمنا هو السلوك الفردي والجماعي الذي يستلهم من الدين مرجعيته، ونفضل تفسير السلوك الجماعي لأنماط التدين، على الاهتمام بالسلوك الفردي، لأن نمط التدين

الجماعي يعكس مظاهر التمثل، والفهم، والتأويل الذي تمارسه الجماعة إزاء الدين لأنها تمنح من خلال ذلك فهمها الخاص لموقفها من الحياة والوجود، ولذلك يكون الاهتمام بالتدين اهتماما بظاهرة اجتماعية. ونذهب إلى القول في هذا الصدد بضرورة أن ينتهي بنا البحث إلى الفصل بين الدين والتدين، لا فقط للتمييز بينهما كمنهج يساعدنا على فهم موضوعي ومتجرد للكيفيات التي يصوغ بها المجتمع موقفه من الدين، وللطرق التي يعتمدها في التطابق مع الروحية الجماعية، بل أيضا للاستراتيجيات التي يتبناها في التحايل على الضمير الديني للجماعة، وعلى الدين نفسه!.

من الدين إلى التدين:

يعد الإنسان، من وجهة نظر هوبز[3] Thomas Hobbes (1588- 1679)، **كائنا دينيا** لا بالمعنى الغريزي الذي يؤول الظاهرة الدينية بحسبانها مجرد حالة عجز عن تفسير ما هو قابل للتفسير، أو بالمعنى البرجسوني الذي نظر إلى الدين بوصفه رد فعل على قلق الموت.

للدين أبعاد متعددة: أهمها البعد الإلهي؛ فالدين بحسبانه **وحي** يقع خارج التجربة الإنسانية، يحتل فيه مفهوم **"الغيب"** موقعا جوهريا. فالغيب هو نظام كامل من المعارف والعقائد والحقائق، وهو يمثل عالما ماورائيا يؤسس لعلاقة المؤمن بخالقه[4]. كما أن لكل دين **رسالة** تعكس في جملتها استراتيجيته؛ أي الغايات الكبرى والأدوات العملية لتحقق الدين وتجسده في الحياة. ويمثل الوحي خطاب ومضمون هذا الدين، فيما يجسد الاعتقاد التمظهر المعنوي والعملي للدين في الحياة الفردية والجماعية على السواء، وهو قائم على الإيمان والاعتقاد واليقين بثوابت الدين. ويفترض الدين أن تتحقق تعاليمه في الحياة الفردية والاجتماعية كجوهر لا كمظهر. ولذلك يعد الالتزام الديني ترجمة للدين إلى سلوك وعلاقات وروابط اجتماعية. **فالتدين، لا الدين، هو ذلك التمظهر الذي يستبطنه الالتزام الديني.**

الدين، في بعد من أبعاده، له مصدر ميتافيزيقي، يحتل فيه الإنسان موقع المتلقي الذي يلتزم عمليا بالتعاليم المبثوثة في الوحي.

المشكلة التي تثار في هذا السياق تتعلق بعلاقة الوحي بالعقل. فما طبيعة العلاقة بينهما؟ وما هي حدود تدخل الوحي في تشكيل عقل المؤمن؟ وهل العقل حر أمام الوحي؟ وهل من تعارض بين واجب العقل وواجب

---

[3]- هوبز، الليفياثان، **الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة**. ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، مراجعة وتقديم رضوان السيد. ط1، دار الفارابي، 2011

[4]- Bergson, ***Les Deux Sources de la morale et de la religion***, *1932*

الوحي؟ إذا كان الوحي يمثل المطلق في مقابل العقل الذي يعد نسبيا، فكيف يستوعب النسبي المطلق؟ وهل يعتبر الدين العقل نسبيا؟ ما الذي يملكه الإنسان، بصفته إنسانا، أمام مقتضيات الوحي؟ وهل الوحي معطى خاص بالمؤمنين وحدهم، أم هو خطاب موجه إلى الإنسان بحسبانه كائنا عاقل؟ ماهي طاقة الاستيعاب التي يمتلكها الوحي إزاء العقل الإنساني؟ هل لخطاب الوحي حدود؟ وإذا كان الأمر كذلك، فما طبيعتها وجدواها؟

هل يقدم الدين أجوبة عن هذه التساؤلات، أم إنه يترك للعقل فسحة الاجتهاد، أم أن الدين يثق في ملكة العقل وفي قدرتها على الكشف المستمر عن المعاني العميقة للوحي؟ وما فائدة أن تظل هذه المعاني محجوبة عن العقل مادامت تشكل طريقا نحو معرفة الحقيقة الدينية؟

يعد الوحي موضوعا للفهم وللتأمل؛ أي قابلا للتعاطي العقلاني، يستدعيك بوصفك قارئا لا بوصفك مؤمنا: أي بوصفك باحثا لا مريدا؛ ذلك أن الإيمان هو محصلة تجربة خاصة مع الوحي، لا تسبقها مسلمات أو قناعات، بل يؤطرها السؤال والشك والمراجعة والنقد، وليس بحثا عن الحقيقة، ولكن بحثا عن الطريق إليها. ليس الوحي جملة ترانيم يكفي ترديدها لنيل العناية الإلهية، ولا هو جملة معلومات كمية مخزنة في ذاكرة الوحي. منطق الوحي يقتضي، حتى لا يكون متناقضا مع متنه، أن يقدم للمؤمنين به ولغير المؤمنين به، على حد سواء، منهجا معرفيا منفتحا على الذات وعلى الآخر وعلى العالم والوجود. دون ذلك لا فائدة من وحي مهما بلغ رصيده من القداسة. إذا كان الوحي، بالمنطق الديني نفسه، قد أنزل من أجل السعادة الإنسانية والرحمة الشاملة، فمعنى ذلك أنه قابل للفهم لا من قبل المؤمنين به فقط، بل من قبل العقلاء جميعا.

لا يعرف الدين نفسه إلا من خلال الوحي، لكن ذلك لا يعني أن الوحي هو الصدر الوحيد لفهم الدين وتأويله؛ فالمعرفة الدينية محصلة مصادر أخرى أبرزها العقل الذي يمثل المدخل الأساسي لمعرفة المستوى الأول من الدين: أي العقيدة ثم المستويين التاليين (الشريعة والأخلاق). الحقيقة الدينية حقيقة عقلانية، قابلة للتعقل، كما المعرفة الدينية معرفة عقلانية، قابلة للإدراك، وإلا فكيف يمكن الادعاء أن الدين شمولي الخطاب؟. الحجة هي العقل الذي يجعل من **الإنسان كائنا دينيا** بامتياز، لأنه مدعو إلى التفكير في تجارب الحياة والموت معا. وكل اعتقاد لا يتشكل إلا من داخل العقل لا خارجه، بواسطته يترسخ ويتعقلن ويكون ممكنا.

هناك ضرورة إبستيمية تقتضي موضعة المسألة الدينية في إطار معرفي- إشكالي لإبراز الأهمية المنهجية للتفكير في موضوع الدين تفكيرا نظريا، لا تفكيرا وثوقيا-لاهوتيا؛ بمعنى أن كل تفكير موضوعي في الدين، بحسبانه واقعة اجتماعية، ينبغي له أن يتخذ المسافة اللازمة، والعدة المعرفية التي تمكن من بحث روابط الدين بقضايا الحياة العملية وتحليل تمظهراته وتعبيراته ومفاعيله في تشكيل الاجتماع الإنساني، وفي الأثر الذي يسم به التماسك الاجتماعي، وفهم وتفسير هذا الاجتماع انطلاقا من مفاعيل الدين في التمثلات والسلوكات.

ما يفصح عنه البحث الفلسفي من تنوع وتعدد لمستويات الإيمان الديني نجد لـه صدى عميقا في الحياة الاجتماعية على صعيد الثقافة والسياسة والقيم والأخلاق؛ أي التدين باختصار. سوسيولوجيا، ينتمي التدين إلى المجتمع، فهو حقله الطبيعي، وتكمن أهمية ذلك من خلال التعاطي مع التدين لتفسير التدين نفسه لا لفهم الدين ولكن لفهم المجتمع؛ أي فهم حركة الدين في الحياة المجتمعية. دراسة التدين لا تفيد في فهم الطرائق التي يتدين بها الأفراد، ولكن لفهم تمظهرات الدين في الحياة الجماعية، والتي تكمن قيمتها في ما تمدنا به من تفسيرات وتأويلات لسيرورة الدين في سياقاته الاجتماعية، وللكيفيات التي يتمظهر بها الدين في العلاقات والروابط الاجتماعية، ومنظومة القيم والتمثلات: الكيفية التي يتشكل بها التدين في بنيات المجتمع. اللحظة التي يتقاطع فيها الدين بالمجتمع، لحظة فارقة في تكييف المجتمع للدين ضمن حركة تفاعل في الاتجاهين.

الدين والتدين في الدراسات السوسيولوجية:

تهتم سوسيولوجيا الأديان بدراسة المعتقدات والممارسات الدينية. وقد انتهى تحليل دور الدين في المجتمع إلى الانتباه إلى حالة التدين، وأشكال تطوره بوصف التدين أسلوبا للتعبير ولممارسة الدين. بهذا المعنى، وبدءا من القرن العشرين، انتقل السوسيولوجيون من دراسة الدين إلى تحليل الأديان (بصيغة الجمع)، والاعتناء بدراسة التدين على الخصوص.

هناك اتجاه واضح لتطور الأديان والممارسات الدينية، انطبع في مرحلة أولى بتراجع الدين، أو ما يسميه السوسيولوجيون ظاهرة **"علمنة المجتمع"**. ثم في مرحلة ثانية (خلال العقود الأربعة الأخيرة) عودة **الديني** الذي لفت انتباه السوسيولوجيين. رغم ما يبدو داخل هذين الاتجاهين من تعارض؛ فهما حاضران كظاهرتين متعايشتين جنبا إلى جنب،حيث يمكن تأويلهما كمؤشرين لتحول يعكس مفاعيل التدين في المجتمع، بل يمكن عدهما من عوامل تغير اجتماعي في طور التعقيد، ولربما هذا ما كان يقصده كليفورد غيرتز (1926- 2006) Clifford Geertz عندما اعتبر أن **العثور على الدين أهم من تعريفه**، وإن كان هذا التأويل يطرح أكثر من إشكال، ذلك أن العثور على الشيء يقتضي بالضرورة تعريفه، لأن السوسيولوجيا تنظر إلى الظاهرة الاجتماعية بوصفها شيء-Chose[5]. وهذا يقتضي التعامل معها كواقع قابل للملاحظة من الخارج، بل يفترض أننا لا نملك إزاء طبيعتها (بحسبانها ظاهرة اجتماعية) معرفة مسبقة. وعليه تؤكد السوسيولوجيا على أن السلوك الديني خاضع لمنطق جماعي أكثر من كونه تعبير فردي، وأن جوهر الدين يقتضي رؤية تقسيم العالم إلى ظواهر مقدسة وظواهر دنيوية، فكل ما له علاقة بالمقدس ينتظم ضمن المعتقدات والطقوس والممارسات،

[5]- Durkheim Émile, « considérer les faits sociaux comme des choses ». 1987, ***les règles de la méthode sociologique(1895)***, PUF, coll. « Quadrige », p 15

بحسبانه جامعا مشتركا بين كل الظواهر الدينية التي اختبرتها التجربة الإنسانية. بهذا المعنى، فالدين يؤشر على تعالي الوعي الجمعي مقابل الوعي الفردي.

وقد حاول دركاهيم (1858 – 1917) Émile Durkheim في كتابه **الأشكال الأولية للحياة الدينية**[6] فهم العناصر المشتركة بين كل الديانات:

ولذلك نجده يؤكد أنه: إذا كان بالفعل من الضروري معرفة ما يتشكل منه دين من الأديان، فإن من الأفضل البحث عن: **ما الدين عامة؟** وهذا المعنى سيقود إلى التساؤل عن الدلالة الموضوعية والوظائف التي يقوم بها الدين بوصفه: نظام متضامن من المعتقدات والسلوكات ذات الصلة بالمقدسات: أي فصل المعتقدات والممارسات التي تتوحد داخل جماعة أخلاقية ما... والفكرة التي يسوقها دركهايم في هذا التعريف تفيد أن الدين يساهم في التماسك الاجتماعي من خلال إرساء مجموعة من المعتقدات والممارسات الجماعية التي تشعر الأفراد المعتنقين لها بوجود رابطة بينهم. فالدين بهذا المعنى يوجد شعورا بالانتماء إلى جماعة، ويساعد على نسج روابط بين أفرادها، وعلى إرساء دعائم المجتمع. غير أن الدين بالنسبة لدوركهايم لا يمكن عده مجرد اعتقاد فردي، ولذلك تصبح الجماعة مقدسة طالما رسخت علاقة المتدينين. الجماعة المقدسة: هي جماعة أخلاقية تستمد قوتها ووظيفتها من كونها غير قابلة للشخصنة - Impersonnelle.

وليست هذه القوة المقدسة سوى المجتمع نفسه، بحسبانه سلطة أخلاقية أنعشت بطقس ديني يعزز روابط الفرد بالمجتمع. وهذا ما يصفه دوركهايم بالطقس الإيجابي مقابل طقس سلبي، ووظيفته حماية المقدس من التعفن الدنيوي، وهو ما يعبر عنه دوركهايم كذلك بـ"التنظيم الاجتماعي للمقدس والدنيوي".

أما فيبر (1864 – 1920) Max Weber فيعتبر الأديان عاملا من عوامل التغيير الاجتماعي، وهو ما حاول إبرازه في كتابه: "*L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme*"[7]، وملخص أطروحته في هذا الكتاب تقول: إن مقارنة المبادئ الأخلاقية للبروتستانتية بروح الرأسمالية الحديثة، تبين وجود علاقة قوية بينهما، ما يدعو إلى اعتبار أن البروتستانتية، والكالفانية خصوصا، قد أسهمتا في انطلاق الرأسمالية الحديثة وتطورها في الغرب؛ فالأخلاق الدينية لها أثر على الممارسات الفردية والمعاملات. ذلك أن الكالفينية التي ارتبطت بالإصلاح الديني البروتستانتي، أعلت من شأن العمل والاستثمار بحسبانهما مظهرا من مظاهر

[6]- Durkheim Émile, 2003, ***Les formes élémentaires de la vie religieuse*** (1912), PUF, coll. « Quadrige ». 2003

[7]- Weber Max, ***L'éthique protestante et l'esprit du capitalisme***, coll. Champs, éd. Flammarion, 1999

التعبد، وبهذا المعنى أضفى على العمل والاستثمار معنى دينيا، وأصبحا بمنزلة الواجب الأخلاقي، حيث سيمثل النجاح الدنيوي/المادي مظهرا من مظاهر الاصطفاء الإلهي على الأرض.

وقد انشغل السوسيولوجيون بمدى إمكانية صوغ مفهوم جامع للدين، حين أفرز مفهوم الدين في الغرب بعدين: أولهما: بعد يشمل الحياة المقدسة، وثانيهما: بعد يشمل الحياة الاجتماعية (عالمين: المقدس والاجتماعي)، مع التركيز على الوظيفة الاجتماعية للدين. وقد استدعى تنوع الأديان وتعددها إلى بروز سوسيولوجيا الأديان بدلا عن سوسيولوجيا الدين.

عودة الدين خلال العقود الأخيرة كان له مظهران أساسيان: صعود الأقليات الدينية من جهة، وبروز الحركات الدينية من جهة ثانية. غير أن بعض السوسيولوجيين لا ينظرون إلى هذه العودة بحسبانها ظاهرة نقيضة للعلمنة التي مست المجتمع، بل هي تأكيد لها. فالدين اليوم أصبح، أكثر فأكثر، اختيارا فرديا وخاصا، وهو يندرج في الحياة الشخصية للأفراد. بالأمس كان للدين نزعة أساسية للعب دور المأسسة الجماعية المندمجة ودور المنظم. أما اليوم، فهو أكثر فأكثر، مصدر مورد للمعنى بتعبير J.C. Kaufman.

ففي سياق الفردنة المهيمنة في المجتمعات الغربية المعاصرة، يحاول كل شخص أن يرتجل تدينا يستند إلى عدة متنوعة من المعتقدات المتاحة. فالمبادرة الدينية اليوم تأتي من الأفراد أكثر منها من المؤسسات. إن التقدم الذي حققته الفردنة يدفع الأفراد إلى البحث عن معنى لحياتهم، ما يؤدي إلى منطق هوياتي جديد. (مثلا ارتداء الحجاب في أوروبا لا يمكن تفسيره دائما بالدافع الديني المحض).

البحث عن الهوية هو أمر في غاية الذاتية، ولأنه كذلك فهو ملازم للاستقرار، وهذا بدوره يفسر تبدل التدين. فردنة الديني لا تعني عدم مطابقته للأشكال والطقوس الدينية الجماعية التي بدأت تعرف نشاطا وصعودا مثيرا، لأنها تتيح للأفراد تأكيد معتقداتهم الدينية.

لم يعد ممكنا الآن الحديث عن موت الدين، إذ هناك أشكال وأنماط متعددة للتدين، بل للأديان، ولعل ما تغير هو موقع الدين ودوره في المجتمعات الحديثة.

التحليل السوسيولوجي للدين يعكس، أكثر فأكثر، مدى التعقد الاجتماعي: إذ يصبح الانتماء إلى دين ما لا يتطابق بالضرورة مع ممارسته؛ فالمعتقدات تختلف عن الممارسات لأن هناك فرقا بين المعتقد والسلوك. تعكس الأديان، بشكل عام، المجتمعات الإنسانية التي تحتضنها، وبهذا المعنى يمكن فهم المجال الديني بوصفه تمظهرا للتغير الاجتماعي.

الـديـــن:

يتوقع الإنسان من الدين أن يقدم لـه أجوبـة عن تساؤلاته المرتبطـة بحياتـه ووجوده، تساؤلات تشمل في الغالب قضايا ما وراء الطبيعة، لكنها أيضا تساؤلات حول التدبير اليومي للحياة، ومقتضيات العيش المشترك. هذه العودة إلى الدين، وهذا الاطمئنان إلى الغيب يكون قويا وملحا في كل مراحل الحياة، وفي حالات التوتر كما في حالات الهدوء والسكينة. لكن هذه العودة لا تعني بالضرورة بحثا عن تفسير منطقي للوجود وأسراره وألغازه، إنما يمكن أن تكون عودة تبرر أيضا عجز الإنسان أمام الطبيعة وإكراهاته: حيث يتحول الدين هنا إلى ملجأ يحتمي به الإنسان، لا فقط من الضغوط التي تأتي من الخارج، بل من التوترات التي تنطلق من ضميره أيضا. ولذلك كان فيبر يدعو إلى ضرورة عقلنة الدين، حتى تقود ممارسته إلى الاستقامة، وحتى يكون ممكنا للدين أن يمنح العالم والإنسان معنى بتعبير كليفورد غيرتس، لأن تفسير الدين للعالم ييسر تنظيم المجتمع برأي بيتر بيرغر (1929 -) - P. Berger.

غير أن هناك من يعتبر إقحام الدين في متطلبات الحياة الإنسانية، يقود باستمرار إلى أدلجته وعلمنته وتسييسه.

يعرف الدين (نهتم هنا بالتعريف القرآني) نفسه بأنه (تبيانا لكل شيء) (النحل: 89) وأن فيه (تفصيلَ كل شيء) (يوسف: 111)، مع ذلك، فالمشكلة التي تثار في هذا السياق تتعلق بأسلوب تعاطي الإنسان مع الدين، وهذا الأسلوب مرتبط بطبيعة التوقعات المنتظرة من الدين. لكن ما الذي يجعل الإنسان مؤهلا ليعتقد هذا الاعتقاد في قدرة الدين: هل معرفته العقلية بالدين؟ وكيف تتحقق هذه المعرفة؟ ثم، ألا يسهم هذا الاعتقاد المسبق في قدرة الدين على وضع معايير لا دينية للدين؟ وإذا عرفنا الدين بأنه بحث عن الأجوبة المرتبطة بحاجات الإنسان، ألا يقود ذلك إلى القول إن حدوده مرتبطة بمقدار معرفة البشر بحاجاتهم: أي أن حاجاتهم هي التي تحدد معرفتهم بالدين؟. وهذا ينتهي بنا إلى القول إن حاجات الإنسان تختلف من شخص إلى آخر، ومن ثم فمعرفتنا بالدين معرفة شخصية. بطبيعة الحال هذه المشكلات تأخذ أبعادا نظرية، ليس هذا مجال بحثها الآن، إنما نستخدمها فقط للتنبيه على التعقيدات التي تطال سيرورة الانتقال من الدين إلى التدين.

متى يتدخل الدين في تسيير المجتمع وإدارته؟ على أي أساس يتبلور هذا التدخل؟ ماهي مبرراته وما الحاجة إليه؟ وهل يحول العقل المستقل دون هذا التدخل؟ ثم، هل يكفي القول بأن للدين تأثير على الناس وعلى صوغ قيمهم وغاياتهم؟ هل يوفر الدين، بما تقتضيه الواجبات التي يلقنها، أن يصدر عن المتدين أفعالا أخلاقية؟ أم أن الدين نفسه يعتبر أن للواجبات وجودا مستقلا، وهو يقوم فقط بنزع الجهالة عن شروط الوجود الإنساني؟ هل يفيد القول بأن الدين يضمن تحصيل الكمالات والمصالح، أن الإنسان عاجز عن إدراك الخير والشر

باستقلال عن التوجيه الديني، أم لأن الدين مصدره إلهي فحتما وبالضرورة له دخل في حياتنا وشؤوننا السياسية والاجتماعية؟

تختزل هذه التساؤلات الفرعية سؤالا وجوديا: موقع الدين في حياة الإنسان؟. لكنها أسئلة تكشف في مظهر من مظاهرها تناقضا جوهريا مع تكاليف العقل العملي؛ إذ يجدر التساؤل: ألا يكون الواجب واجبا إلا إذا كان أمرا إلهيا؟ مع أن مفهوم الواجب له استقلالية يبررها العقل العملي، كما أوضح ذلك فلاسفة الأخلاق، بما يفيد أن الدين أرسى مناهج التعرف على الواجب، وفتح المسالك إليه بما أودعه في الإنسان وفي الشريعة معا.

التدين هو الدين في سياقه الاجتماعي:

لعل التفكير في الدين والتدين هو تفكير في المجتمع وفي سيرورته، لكن يجب الاعتراف أن هذا التفكير دونه صعوبات، ولذلك تشتد الحاجة هنا للمعرفة السوسيولوجية، بوصفها معرفة قادرة على تحليل وفهم وتفسير طبيعة التبدلات التي تخترق منظومة المجتمع ونسق هويته. نحن إزاء مجتمع في حالة انتقال، وكل محاولة لفهم طبيعة هذا الانتقال، تمر عبر تحليل دقيق لحيثياته. كل المجتمعات التي مرت بمراحل انتقالية، عاشت حالة توتر واحتداد تعكس القلق الوجودي على مستوى الجماعة والفرد، وهو قلق مؤثر في حركة المجتمع، وفي كينونته، وفي انتظامه. ولكي ندرك قسوة مفاعيلها، يمكننا أن نتأمل حالة التدين فيه من خلال رصد: حركاته، واتجاهاته، ومصائره. لابد من إعادة صياغة أسئلة التدين في المجتمع بناء على المعطيات الفاعلة فيه: أي نمط من التدين هو الآن في طور التشكل؟ هل هو نمط تدين قابل للتعميم، أم أنه مجموعة أنماط؟ هل يمكن الحديث عن هوية جماعية للتدين؟ وكيف يتدين المجتمع؟ وعندما نتحدث عن التدين، هل نحن بصدد الحديث عن الشيء نفسه؟ وهل وقعت الهوية الدينية للمجتمع تحت تأثير المرحلة الانتقالية؟ لا شك أن المجتمع المغربي أصبح متدينا بطرائق وأنماط وأشكال متنوعة ومختلفة أكثر مما كان عليه في السابق، فما هي العوامل الفاعلة في ذلك؟

الدين والتدين والاختلاف:

الدين مكون من مكونات الهوية، وإن لم يكن بالضرورة كذلك في كل الحالات، إلا أن وجود قدر كبير من الحرية في اختيارنا لأي دين نريد أن نتعبد به، لا يجعل الدين أمرا حتميا، بل اختياريا. ولذلك فالمبدأ الذي يحتكم إليه الدين هو أحقية المعتنقين في أن يكونوا أحرارا في اختياراتهم ومعتقداتهم، ولذلك انبنى هذا المبدأ على مبدإ آخر هو مبدأ الاختلاف؛ فالحرية تقتضي وجود الاختلاف، والدين يعترف وينظم هذا الاختلاف على قاعدة منطقه الأخلاقي والتشريعي. غايات الدين ومبانيه المعرفية والتشريعية تتبنى هذا التصور، بل يعد مقصدا

من مقاصده العليا. ففي التجربة الإنسانية يلح الدين على أهمية العقل والتكريم، وعلى الوظيفة التحريرية للدين في الاجتماع البشري. هذا الاجتماع الذي خصه القرآن بسمة تكوينية هي الاختلاف: (ولا يزالون مختلفين) (هود، الآية 118)، بل الاختلاف هو شرط وجود الاجتماع الإنساني برمته (ولذلك خلقناهم) (هود، الآية 119). غير أن الدين سعى بما تضمنته تشريعاته ومقاصده إلى تنظيم هذا الاختلاف، وليس القضاء عليه، ليصبح الاختلاف تنوعا يتماشى مع مقتضيات السيرورة الاجتماعية.

جاء الدين بتصور يعتني بطبيعة الروابط التي يقيمها الناس في ما بينهم، فجعل رعاية أمور الآخرين والتعاون معهم والتقرب منهم والتعرف إليهم، شرط الحياة الاجتماعية المبنية على الثقة والتواصل (شعوبا وقبائل لتعارفوا) (الحجرات: 13)، على قاعدة هذا المبدأ يحق لكل الهويات أن يكون لها حق مقدس في الوجود.

أسئلة التدين في المجتمع:

الاهتمام السوسيولوجي بالظاهرة الدينية له عدة فوائد، فهو يساعدنا على فهم أنماط التدين، من الناحية المنهجية لابد من الانتباه إلى أهمية التمييز بين مفهوم "الدين" ومفهوم "التدين".

لعل فهم أنماط التدين ودورها في انبناء الهوية، يمر بالضرورة عبر تعريف الدين وتفسير دوره في حياة الفرد والمجتمع، وأهميته في صوغ تمثلات المفاهيم الدينية في الوعي الفردي والجمعي. كما تكمن أهميته في تأسيس هوية دينية وروابط وديناميات، تجعل من التدين ذاته أداة لفهم المجتمع، وتفسير التحولات والتجاذبات القائمة فيه، ورصد مصائر الهويات التي تتجاذبه.

لابد أن نتحدث هنا عن أنماط وتمثلات التدين بحسبانها مداخل أساسية تساعدنا على تحليل هوية الظاهرة الدينية، غير أن هناك إشكالا آخر يقف عائقا أمام تحليل الظاهرة وتفسيرها. فالدولة تُخضع الحقل الديني للرقابة، حيث يتحكم الهاجس السياسي والأمني في سلوكها إزاء الدين. الدولة فاعل أساسي في المسألة الدينية؛ فهي التي تنتج الخطاب الديني من خلال المؤسسات التي تشرف عليها ومن خلال الأجهزة والرموز (إمارة المؤمنين، أو وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية). بطبيعة الحال، فهذه الرقابة تساعد على إنتاج رموز دينية بالقدر نفسه الذي تعيق من خلالها نموا طبيعيا لحقول وأنماط تدين في مستويات اجتماعية متفاوتة. وفي مقابل كل ذلك، هناك هويات دينية تتبلور على هامش المؤسسات الرسمية أو ما يسمى ب"التدين الشعبي" الذي لا ينضبط بالضرورة إلى معايير التدين الرسمي، وله عدة مصادر ومرجعيات من بينها توجيهات الدولة ومؤسساتها ورموزها، وله أيضا مرجعيات أخرى منها الإعلام المكتوب والسمعي البصري، والأشرطة، والمنشورات، والكتب والتأويل. التدين الشعبي مرتبط في كثير من مظاهره بالتحولات التي تحدث في المجتمع.

ووجود خطاب ديني رسمي لا يعني بالضرورة أن المجتمع يحمل الخطاب نفسه والتصورات، إنما هناك سيرورة على هامش المؤسسات الدينية للدولة أو ما أسميه بـ "السيرورة الاجتماعية للتدين"، وهو وصف سوسيولوجي لحقل تدين يصعب رصده، بمعنى آخر: إن المجتمع المغربي تتجاذبه على الأقل حقول أربعة: أولها: حقل ديني رسمي مؤسساتي له خطاب أحادي محدد. والثاني: حقل ديني اجتماعي يقتات على أنماط تدين ذات مرجعيات مختلفة الخلفيات والقيم والتمثلات. وثالث: يعرف بـ"الإسلام السياسي الحركي". غير أن هذا الوصف هجين، وتجد السوسيولوجيا عناء في قبوله. وأما الحقل الرابع، فهو خليط من الخطابات الدينية التي يمارسها الإعلام المرئي على صعيد الفضائيات، والذي أصبح له جمهوره وأتباعه، الذين يعدون كتلة منقطعة تماما عن التدين المحلي، وهي غير مهتمة به، إذ يتحقق لها إشباع، بل وفائض ديني. على هذا المستوى نحن أمام أكثر من هوية دينية. الحقل الأول مراقب وموجه يخضع للتقنين، وهو بالمحصلة دين "الدولة"، مرجعيته واضحة وأهدافه أقل وضوحا. أما الحقل الثاني "السيرورة الاجتماعية للتدين" أو التدين الشعبي، فهو منفلت تعددي المرجعية متناقض، تدين المفارقات وغير قابل للرقابة وأهدافه خاضعة للتحولات الاجتماعية التي تعتمل مفاعيلها في صلب الروابط والعلاقات ليمتد تأثيرها إلى سلم القيم؛ أي تلك التحولات التي تحدث انقلابا في منظومة القيم. لكن الأكيد أن السوسيولوجيا لم تستفد بعد من المعطيات البحثية الميدانية حتى تتكون لدينا رؤية علمية دقيقة قادرة على تفسير وتحليل أنماط الهوية الدينية ومآلاتها في مجتمعنا. وهذه مناسبة لدعوة الباحثين إلى ضرورة وأهمية تأسيس مراكز البحث والدراسات التي تعتني بالتدين من خلال توظيف معطيات العلوم الإنسانية عامة، والسوسيولوجية خاصة.

يبقى أن نشير إلى أن هذا التحديد النظري لحقول التدين في المغرب قد يزيد أو ينقص، وقد يتسع أو يضيق، وقد يتداخل أو يتقاطع في بعض ملامحه. كما يتميز ويمارس القطيعة بين/أو مع حقوله بحسب الشروط والسياقات الاجتماعية.

سؤال الهوية الدينية:

علينا أن نسأل المجتمع عن تدينه؛ فالمتدينون متروكون لاجتهاداتهم الخاصة، بل أحيانا للصدفة. المتدين لا يتعلم دينه: إنه يتلقاه أو يصادفه، نحن نتعلم كل شيء تقريبا إلا التدين؛ فهو نرثه أو نكتشفه من خلال الآخر، ولكنه ليس في كل الأحوال نتيجة بحث أو دراسة أو علم. ينتمي تديننا للتراث أكثر من انتمائه للوحي، وللتاريخ أكثر من انتمائه للعصر. إن صلة المجتمع بالدين ليست مباشرة وليست واضحة، وقد ينتمي الشخص في الوقت نفسه لأكثر من نمط تدين من دون أن يمثل له ذلك أي إحراج أو انفصام. وفي هذا السياق، تبدو محاولات الدولة الهيمنة على حقل التدين دون جدوى، لأن خطابها يحمل الكثير من الغموض إلى الحد الذي تبدو فيه دولة

لادينية، ولكنها ليست ضد الدين!. ولذلك، نجد أن الحياد الديني الذي تمارسه الدولة، حياد غير مصرح به؛ فعندما تقول لنا الدولة إنها تدافع عن الدين، فإننا لا نفهم بالتحديد عن أي دين تتحدث؟

هل بنية المجتمع بنية دينية؟ بم نقيس تدين المجتمعات؟ وهل سيادة الأنماط التعبدية تكفي لتأويل الحياة الاجتماعية للناس على أساس ديني؟ وبأي مقياس أو مؤشر نقيس حجم ونمط التدين؟

تقتضي دراسة موضوع الدين والتدين الاستفادة من مكتسبات العلوم الإنسانية المعاصرة، وما توفره الفلسفة على الخصوص من مقاربات ذات عمق على مستوى تصور العلاقة بين الدين والتدين.

لئن كان الدين من حيث التعريف قابلا للتحديد، إما لجهة تصور الأديان نفسها، أو لجهة تصور العلوم الإنسانية، فإن تعريفا دقيقا للتدين يبقى موضع جدل على نطاق واسع في الفكر السوسيولوجي على الخصوص.

ينتمي الدين إلى حقل المعرفة الدينية، المعرفة المباشرة التي لها صلة بالوحي، حيث يقدم الدين، في المتن القرآني، تعريفا منهجيا ومعرفيا لمعناه ومبناه. فيما ينتمي التدين إلى حقل المعرفة الإنسانية وحقل التجربة الاجتماعية، إنه حقل الانفعال والتمثل والعلاقات. لذلك يستعصي التدين على التعريف والتحديد الصارمين، لأنه ثمرة لمجمل الحياة الاجتماعية بتوتراتها والتباساتها بما يضمره الضمير وتقتضيه إكراهات العيش المشترك وما إلى ذلك من الحيثيات.

ليس الدين هو التدين، وحيث تترسخ بنية التدين تبتعد المجتمعات عن الدين في الزمان كما في التمثل، تظهر عوامل غير متوقعة في إعادة صياغة علاقة المجتمعات بالسؤال الميتافيزيقي. وكلما اعتقد المتدين أنه أكثر قربا من إلهه المعبود، كلما ابتعد المجتمع عن الدين وازدادت العلاقة بينه وبين الدين تعقدا وغموضا.

يمثل الدين رهان جذب وساحة صراع بين القوى السياسية والاجتماعية، وهو على مدى التاريخ العربي مصدر قوة وإلهام يستعمله الجميع من أجل الإطاحة بخصم ديني أو سياسي، وضخ منسوب من المشروعية في رصيد هذا الطرف مقابل نزعها عن الطرف الآخر: أي الخصم المفترض. والدين بهذا المعنى لا يمثل قيمة أخلاقية أو روحية بحد ذاته لدى المتنافسين، بقدر ما يمثل زخما ورصيدا للكتلة الاجتماعية التي تقع خارج مدارات التأطير المدني والسياسي.

إن نزع الطابع الأخلاقي يتم في الغالب باسم الأخلاق نفسها، فيصبح الدين شذرة مجتزأة ومفصولة عن منظومة العقيدة بما هي وحي، ليتم تحويله إلى أرثذوكسية متكلسة صماء يسهل تصريف تعاليمها بطرائق سطحية داخل بنية اجتماعية مهيأة لاستقبال خطاب تبسيطي وعظي يخاطب الوجدان ويلغي العقل.

عاشت مجتمعاتنا على مدى قرون ما أسميه بـ"فوضى التدين" تعمقت بشكل دراماتيكي منذ العقد الأخير من القرن الماضي، عندما كانت المنطقة عرضة لما سمي بـ"الفضائيات الدينية"، حيث شرع الإنسان العربي في التعاطي مع برامج دينية سعت في مجملها إلى نشر نمط من التدين قائم على قيم الخلاص الأناني، وليس الفردي، فأصبحنا أمام تعدد المرجعيات الدينية التي تغذيها الرغبة في اكتساح الحياة الدينية للجماعات بعيدا عن معايير وقواعد الدين نفسه، من خلال تجييش العاطفة واللاوعي، وتأصيل فكرة إمكانية ولوج الجنة من دون تكلفة مادية أو معنوية أو روحية: يمكنك أن تكون مؤمنا نموذجيا وتحافظ في الوقت ذاته على رغد العيش، كما يمكنك أن تكون مؤمنا حقيقيا إن قبلت بشظف العيش وخشونته. إنه خطاب مزدوج يحافظ على تدين الفقراء ويطمئن الأثرياء. يبرر تساكن أنماط التفاوتات تحت مسميات دينية. ينطبق هذا التوصيف على الذهنية العربية برمتها وفي العالم الإسلامي، وهي ذهنية عقائدية راسخة منذ قرون.

ترسخ هذا الخطاب بفعل الفراغ الديني والروحي، وبفعل إرادة سياسية كانت تنظر إليه بعين الرضا طالما يحافظ على السكينة السياسية والدينية، لأنه في المطاف الأخير ينتج متدينا سلبيا وعاطفيا. إنه زبون أكثر من كونه متدين. سطحية الخطاب الديني هي ثمرة سطحية التفكير الذي يقود العقل الديني ويوجهه.

في مجتمعاتنا يمكنك أن تحصل على فتوى لمجرد أن تزور حلاقك الشخصي، أو أحد جيرانك، أو أن تضغط على زر الشاشة لتشفي غليلك الديني من الفتوى والوعظ. الفتوى على الهواء أو الفتوى الافتراضية تصنع كتلة من المتدينين تعجز السوسيولوجيا بأدواتها التقليدية عن تحليل تكويناتها وتفسيرها. عندما يحتاج المتدين إلى فتوى فهو يتسوقها كما يتسوق البضائع فيحرص على اقتناص الرأي الفقهي الملائم لذوقه وانتمائه الاجتماعي، ولربما يحرص على فتوى ترضي زوجته! إنه لا يبحث عن رأي الدين في المسائل الفقهية، بل عن "الداعية النجم" المفضل لديه بناء على معاييره وميولاته، ونمط عيشه ومستواه المادي والثقافي، ووسطه الاجتماعي.

لكن مع ذلك، لا ينبغي التورط والإفراط في تأويل تبسيطي للمسألة. إن هناك استراتيجية دينية موجهة لتكثيف الموضوع الديني في الحياة اليومية للمتدينين والمؤمنين. تقوم هذه الاستراتيجية على ملء الفراغ، وتقريب الفتوى وتبسيط الولوج الديني من خلال سيولة البضاعة الدينية ورواجها ووفرتها. وقد وضعت رهن هذه الاستراتيجية أموال طائلة يعرف الجميع مصادرها. لذلك تم التعامل مع المؤمن كزبون، وتكثير الزبائن يقتضي إخضاع الحاجات الدينية لمنطق التسويق والسلعنة. إنه النمط الجديد من التدين الأكثر انتشارا ومقبولية في العالم العربي، ولا يشذ عن هذه القاعدة أيا من المجتمعات العربية على اختلاف سياقاتها الثقافية والوجدانية.

أما من حيث المضمون، فقد انبنت هذه الاستراتيجية على الترويج لخطاب ديني تاريخي وطائفي، لكن من دون استعمال القاموس الطائفي دائما، كما تمت مسرحة التاريخ الإسلامي، وأسطرة رموزه وإحاطتهم بنوع من القداسة التي تنفي عنهم طبيعتهم البشرية. ومن ثم قاد هذا الخطاب المتدينين إلى تحييد العقل النقدي الذي تقوم وظيفته بالأساس على المراجعة المستمرة للمعرفة، سواء منها الدينية أو التاريخية.

تشكلت الذهنية الاجتماعية وترسخت مفاهيمها عن الدين، ضمن هذا التوجيه المبرمج الذي أفضى إلى أنماط من التدين على قدر كبير من التعقيد. وهو التعقيد ذاته الذي يواجهنا عند محاولة فهم المجتمع وتحولاته، ومن ثم تبرز الأهمية المنهجية والمعرفية التي يمنحها توظيف مفهوم "التدين" في تحليل وتفسير تلك التحولات.

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com